الى أبي مُعلت فراه

القهقرى[1]

دهر يضيع سبته احدُه متابع ما ينقضي امده
والحال من سعد يساعدنا طوراً ونحس صعب تكده
افلا سبيل الى تبعدنا في سرمد لا ينقضي ابده
سكرى شباب لا يداتيه هرم وعيش دائم رغده
لا خير في عيش نخوننا اوقاته وتنوفنا مدده

(لابن الرومي)

دقّت الساعة سبعاً فطوى (حُسين العروسي) الصحيفة التي كانت بين يديه ودعا بطربوشه وعصاه ثم نهض وودّع أمهُ واخبرها انهُ عائد عند منتصف الليل، ثم انصرف قاصداً الى الكازينو (سان استفانو). وكثيراً ما كان يأتيه في مثل هذه الساعة طول فصل الصيف

دخل حسين الكازينو على عجلٍ وانطلق الى الشاطىء. وكان الشاطىء غاصًّا بالناس فأخذ حسين يمشي مقبلاً مدبراً. وكان يشعر في تلك الليلة بانقباض صدرٍ بثه الى الخلاء بنفسه. غير انهُ اراد التسلية فطفق يتأمل القوم الذين كانوا حواليه، فدهش للذي رآهُ وعجب كيف لم يره من قبل: دهش لتلك المرأة العجزاء المُلقية رأسها الى خلفٍ كأنها قيل يخطب في قردة، الناظرة الى غيرها في ازدراء كأنما في عظمة عَجُزها أبهة ووقار!... دهش لتلك الصبيّة الرافعة ازرها حتى موضع كذا بعد ما لمح في عينيها بريقاً كلُّهُ شهوة... دهش لهذه المرأة المتسندة على ذراع زوجها وهي ترنو اليه في شغف وكان رآها من قبل تُهوي يدها الى شَفَتَيْ فتىً ضخم... دهش لاربعة شبان بين غرباء ووطنيين يتنازون على سرب فتياتٍ يخطرْنَ قدّامهم. فكان يفخر كلهم بقبضة يدٍ اقتنصها من احداهنّ او قبلةٍ اختلسها أو عضّةٍ اجترأ عليها

ملّ حسين هؤلاء القوم بل كرههم فغادر الشاطىء وخفّ الى قاعة (الروليت)[2]

(١) حقوق النشر محفوظة للمؤلف (٢) نوع من القمار

فجلس الى طرف المائدة وجعل يقامر نفسه فأسك . ثم اخذ ينظر الى الجالسين . فكان عن يمينه امرأة سورية بادن سندة ساعديها ومعظم صدرها الى المائدة ، وكانت اعلى الحضور صوتاً ، تتأوّه وتضجّ ثم تلتفت الى صاحبها وتقول له : رقمٌ واحد ، واحد ، لعن الله الشيطان !

وكان عن يسار حسين رجل يزعم أن له في الريح اسلوباً تعلمهُ في (مونت كارلو) . فكان يخط على ورقة مثلثات ومربعات ودوائر يصل بعضها ببعض ثم يرسم نقطاً بيضاء واخرى سوداء ثم يجمع ويضرب ويطرح ، وكان يقول لجاره كلما خسر . اني لا ابالي بمثل هذه (الروليت) بعد ما قامرت في (مونت كارلو) . وكان جاره يوافق على قوله وهو يناديه يا بيه كما يُنادى معظم الناس في مصر ، حتى سبق الى ظن الغرباء انا نحن نرى في الالقاب الرأي القديم ، ولكنهُ فاتهم ما في هذا النداء من سخرية خفية وما في استماعه من الاستخفاف به احياناً

ثم انهُ كان خلف حسين فتىً أمرد يقذف بدراهمه مسترقاً حركاته . فان كسب طالب بحقه في صوت منخفض ووجه ندي ، ثم لم يجسر ان يعدَّ مكسبهُ بل يزوي مخافة ان يراهُ ايوهُ . وكان ايوهُ جالساً في المقصف [1] الى مائدة عليها كأس مترعة تجاورها قنينة (كونياك مارتيل) مرسوم على عنقها ثلاثة نجوم . وكان الرجل ينظر عن عُرْض الى « الهوانم » الجالسات في مؤخر المرقص ، ولو درى ما يختلج صدورهنَّ في هذه الساعة لدهش كيف يستطعنَ ان يمشينَ

وكان امام حسين عامل مصري اغبر الشعر ، لهُ عينان سوداوان غائرتان ، ملؤهما القلق والجزع واقف منتفخ الاوداجين . وكان من الصعب ان تحدد لطربوشه لوناً . واما قميصه فكان يدل على انهُ لا يقرب الماء الا خطأً يوم الجمعة من كل اسبوع . وكان حاملاً سلسلة ذهب غليظة وكان (بنطلونه) مرتفعاً عن حذائه فكنت ترى جواربَ مسطّرة تسطيراً قبيحاً في الوان ساطعة داخلت بعضها بعضاً . وكان على احدى جوانب حذائه الأيسر رقعة عريضة

وكان الرجل يقذف بنصف ريال كلَّ مرة . وما لبث ان عظمت خسارتهُ . فكنت تراهُ يميل طربوشه ويعدّله حيناً ، ويشدّ كمَّ قميصه حيناً آخر ، وهو يمدُّ بصره الى كرة (الروليت) في عين قلقة تائهة وقد اصبح والخسارة لا تؤثر فيه كأنها عادة ارتاح اليها . فظلَّ يقذف بانصاف ريالات والأمل دافعهُ ثم ارباع ريالات حتى انتهى الى آخر ريال في

(١) البار

جيبه . فتأمله فاتر الطرف مضطرب اليد ، ودنكه بأصابعه ثم قبض عليه بشدة كأنما يودعه الوداع الاخير ثم نبذه على المائدة في عنف ، وسرعان ما بقي صفر اليد . واذا هو يبتسم ابتسامة من عثر على قطعة زجاج فحسبها درة ثم انتبه ، بينما كرة الروليت تدور حول الارقام مضطربة حيرى ثم تحدر اليها وتتقل بينها مع شيء من التدلل عليها والهزء بها كأنها نورية ترقص على حبل مستدير فيه تسع عقدات ، أو فتاة يغازلها جماعة من الفتيان فتختار أحدهم بعد طول تردد وكثير غنج ، وفي اختيارها كل ما في جنبي المرأة من نزق واتباع الهوى

***

نهض حسين من مكانه ضيق الصدر وانطلق الى الشاطىء . فما كاد يبلغه حتى شعر بغشية اخذته فجأة ، وكأن قلبه ينقض حسرة . فأدرك لفوره انه اسير نوبة كان يفر تعاودها الحين بعد الحين . ولعلها تعيد عليه ذكريات قديمة اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة ، كأنها جانب من الماضي قد مازجه شيء من العجيب او صورة دقت ولطفت على الايام

على ان حسين كان من اولئك القوم المعدودين الذين تمر بهم فتظن انهم مجبولون على جبلتك وان تمرتهم هالك حالهم الى حد تعد حياتهم أمراً من وراء الطاقة .. كان حسين مريض النفس طبيعة ولم يقطن ابواه الى مرضه فلم يعالجاه ، ولو فطنا لا شك زعما ان مرضه طرف من الجنون ، لانه من الصعب ان يصدق من انقلبوا الى احساس غليظ تملقهم بالمادة أن بين اطواء الحياة من لهم احساس لطيف ربما تناهى فبلغ المرض

وكان قد زاد في مرض حسين تقلب الدهر عليه في فتوته وشبابه ، وقراءة ابي العلاء وابن الفارض (وتوماس هود وتلستوي) . وكان حسين مولعاً بالشعر فقاله وهو فتى ، شأن معظم الفتيان عند ما يشعرون برجولتهم فتبرز شهوتهم في قالب روحاني . ولكنه تركه بعد حين لتقصيره في ميدانه . ثم انه اقبل على الفلسفة يتفهمها وهو لم يقطع شيء منها من سلف ، فانه كان جاهلاً مع حمله شهادة البكالوريا المصرية وكان عنده اشبه بالباذنجان الروماني المنفوخ اذ كان يعلم مثلاً أن ميزة ادب العصر العباسي النزل بالذكور فيذكر في هذا الباب ابياتاً لابي نواس أملاها عليه استاذه الفلاني

ولكن حسين تدارك جهله قرأ هنا وهناك واطلع على بسائط عدة فنون حتى استقامت له وهو في الثلاثين من عمره بضاعة علمية . وكثيراً ما كان يفكر في مسائل فلسفية ولاسيما اذا فاجأته النوبات الاضطرابية

... فما عسى ان يكون ما يفكر فيه في تلك الليلة ؟ كان يفكر في هيأة الحياة والغرض

منها . فذكر كلمة لارستطاليس أنّ كل ما تبدعهُ الطبيعة آية وذكر غيرها من الكلمات في جمال مظاهر الحياة وخفاياها . فسأل نفسهُ هل الحياة جميلة وفيها من الآفات ثلاث: المرض والشيخوخة والموت . وفيها من الخبث والشدة ما لا يدور في ذهن . وهل الطبيعة تبدع الآيات وفيها ما فيها من تناقض اعراضها وتنافر اجزائها : فهنا تباين بين الرجل وبيته وهناك نزاع بين الموفق وغير الموفق . ثم اين الطب وادعاؤه علاج المرض ومقاومة الشيخوخة ودفع الموت ؛ واين التمدن ووعده اخراج الناس من عالم الحيوانية الى عالم الانسانية ، واين الدين وتعليمه المحبة والمساواة !

ثم فكر حسين في السعادة وحقيقتها فكان يقول فيما بينهُ وبين نفسهِ « ليست السعادة امرأة غزلة تأذن لك في أن تقبّل شفتيها من حين الى حين ثم تمنعك ما تشتهي من وراء القبلة ؟ ليست السعادة كرة (الروليت) تحقق املك مرة لاهيةً وتخلفه مراراً ساخرةً منك ؟ ليست السعادة خرافة من خرافات الاغريق والرومان ورواية من روايات الف ليلة وليلة ؟ اين السعادة ما دمنا نتقاد لذكائنا وذكاؤنا سبب الشقاء لانهُ بث في اذهاننا فكرة الفزع من الموت ثم استنبط لنا طرق معيشة غير طبيعية بل أفسد غريزتنا التناسلية اذ بدّل من نزعاتها

« انهُ يقال أن الصلاة والعبادة تهونان من شقاء المؤمن . فما شأن من تخلص من وطأة تقاليد مجتمعة واعرض عن المبادئ التي نشأ عليها بين افراد اسرته او على مقاعد المدرسة ثم عمد الى رأي ذاتي واستطلع وبحث ونقد فشكّ وضعف ايمانه ، فضاقت فسحة امله ، فلا احلام ولا تمثيل تفسير بأمر نظري لا صلة له بالواقع الملموس

« انه يقال ان السعادة طيّ روح المجتمع فعلى الفرد ان يستمدّ منها لروحه .. فمن يدلنا على هذه السعادة وينشرها من مطواها ، فنطير اليها نقتسمها

« انه يقال إن السعادة شعور النفس بكمال فيها وحرية ونظام متناسب . . حديث لعمري وهمي ، مصدره الأمر المطلق وأين المطلق من اعراض الدنيا ونسبيتها ؟

« اين السعادة والانسان كما قال بعضهم لا يشعر الاّ اذا اراد وما الارادة الاّ الجهد وانما الجهد الم ، فالارادة الم والحياة الموقوفة عليها الم »

ذلك ما كان يفكر فيه حسين وهو يمشي رويداً على الشاطىء . وتلك كانت فلسفته فلسفة التشاؤم من العالم — على ان الذي دفعه الى هذه الفلسفة تغلب تصوره على فطنته

وما التصور الاّ الأماني التي تصطدم بالواقع ، والرغبة في تذليل الدنيا الى الشهوات والعواطف . والتصور ناتج عن شدة ايمان بما هو فوق الطبيعة وهكذا نشأ التصوّف وانطلق

معظم الأديان فيما هو نظري . وأما الفطنة فهي تخضع لنواميس الدنيا وتكفّ عن الشهوات والعواطف ، والفطنة صادرة عن الاختبار والعلم الحقيقي

هذا وان بين التصور والفطنة فضالاً يزداد بنشوء الحياة العقلية ، واليك الفتيان فكلهم متذمر من الدنيا غاضب عليها لأنها تعاكس تصوره ولا تحقق الآمال التي يعقد بها. ثم انه عند ما تكمل الحياة العقلية يعدّ الاختبارُ التصورَ والحقيقةُ الرغبةَ فتسوس الفطنةُ حياةَ الرجل . غير أنّ بعض الناس لا ينقادون للاختبار ولا يزلون على حكم الدنيا ، فيكوّنون في مخيّلتهم دنيا أخرى تسدّ حاجات انفسهم وتلائم اطباعهم ، ويعيشون على هذه الخال دهرَهم بجانب الحياة من دون ان يتلوّنوا بلونها . وما من شقاء بعد شقائهم لأنهم في خلاف مستديم مع ما حولهم . ومن هذا الفريق من الناس صاحبنا حسين

وكان قد بلغ بتشاؤمه المبلغ العظيم كلُّ ما تعد بالشرق منذ القديم من عجز امام قوى الطبيعة ويأس من بلوغ السعادة واستسلام الى القضاء واطمئنان الى الموت فلا عزمَ ولا كدّ بل سقوط همة وانقباض عن الحياة ، ولا هجومَ ولا ثورة بل فرار واستكانة ... نهنه الهند ورجميّها وهذه بلاد غيرها وجودها

***

كأنّ الشاطىء في تلك الليلة ، ودويّ البحر أشبه بالزفير تارةً والنشيج اخرى ، جانب من الارض اقام الناس فيه مأتماً . . وكأنّ حسين بالموجة ، وهي تعلو مزبدة ثم تهبط ساكنة وقد بعدت عن الضجة الى ان انتهت الى الشاطىء محتضرة شيئاً فشيئاً ، رجل تجمد لهيب حياته كما نفر من الحب ....

الحب ! هنا جمد حسين لحظة . على انه ذاق طعمه وهو فتىً ، فخبر المرأة ولذته ثم حوّل عنه لشهوات ملكت عليه نفسه ، عند ما اندفع في تيّار الحياة . فلهاه عن الحب وجماله اللذةُ وقبحها . وعزيز على الشاب ان يجمع بين هناء الروح وهناء الجسد ، وان جمع فعزيز عليه ان يجعل احداً فيما بينهما بل كثيراً ما يرى هناء الجسد هناء روح

غير ان حسين كان رقيق الاحساس روحانيًا . فما عنّ ان تلمّس الحبّ ولطفه ، فما وفق اليه ، ولكنه ما زال يأمل التوفيق لعله ان القضاء مع قسوته سائق اليه يوماً من الأيام الفتاة التي اعدّها له ... أولا يسقط الطلّ لاحياء الورد ؟

أترى هذه الفتاة تلك الصبية التي حدثته عنها امه اذ قالت له ذات يوم : يا بنيّ اني بصرت عند جارتي بصبية لدنة المعاطف ثقيلة الارداف ملفوفة الساق « عينيها جوزة وفمها لوزة » . ففكرت انها تصلح لك زوجاً ، فان وافقتني على ذلك فاتحت جارتي بالأمر .

قال حسين اماه اني لا اعرف هذه الفتاة ولا اعلم هل تقع من نفسي وان وقعت لا اعلم هل اقع من نفسها ، فكيف لي ان اتزوجها

على ان الرجل دهش من هذا الاسلوب بل ثار عليه ، ولم يلبث ان صرّح لامه انه لا يرضى بزواج لا يفصل فيه بنفسه . فعظم حديثه على امه فانصرفت وهي تتمتم ان ابني صار افرنجيًّا فلا سبيل لي ان اختار له الزوج التي ارضى انا بها ... واعلم ان الذي حملها على هذا الاختبار انما انانية الامومة لا حبها لابنها

***

ظلّ حسين يجول مع هواجس قلبه حتى كلّ . فقصد الى مقدّم الشاطىء وجلس على كرسيّ هناك ، ثم اراد ان ينفض عنه الكآبة فتأمل البحر واذا موجات الماء وضياء القمر متكسّر عليها حبّات عظيمة لا ثبات لها كلها صدف لمّاع

غير ان سكون الشاطىء وعويل البحر مثّلا لحسين ثانيةً تلك الصورة صورة مأتم اقيم في جانب من الارض . فكل ما عرض له في تلك الليلة من شقاء وبؤس وتشاؤم تجمع في لحظة ثم هتف حسين في اثرها ان يرد من دمع عينه . . . ألا ما اعذب البكاء على انفراد في ساعة كهذه لشعر بأنا اضيع خلق الله حظًّا

وان حسين لكذلك اذا رجل يعطس خلفه بقوة . فذُعر ولفت رأسه واذا صديقه (فريد رياض) يداعبه . وما ابطأ فريد ان لمح دمعتين على خد حسين فقال له ما هملك قال لا همّ لي ثم حاول ان يخفي حاله ، فطرف بعينيه وتباسم حياء كأنما الرقة منقصة في الرجل . غير ان فريداً كان اعرف الناس بصديقه ، وكان خبر شدة احساسه وسرعة اكتئابه . فقدّر ان حادثاً جديداً ألمّ فرقّ له في نفسه ثم اخذ بذراعه وانطلق به الى داخل الكازينو . فجلسا معاً الى مائدة من الخيزران الأبيض . وكان عن يمينهما امرأتان يونانيتان ، احداهما مستهترة والأخرى مندفعة في الكلام بلا انقطاع كأنّ لسانها عداد « تاكسي » قد جدّ في سيره

وبعد قليل اقبل غلام الكازينو . فدعا حسين بكأس من الويسكي ثم استزاد ثانيةً وثالثةً . وكان ينشرح صدره كلما شرب . ولم تكن الخمر السبب في ذلك لأنه كان من اولئك الذين اذا شربوا حزنوا ، ولكن طول همه شقّ عليه نسيه في التخلص منه كما يسعى العاشق احياناً ان يتخلص من عشق جاهد . فتباعد من نفسيته ما استطاع وتلمّس نفسية اخرى بعد ما تناسى ما فاجأه لساعة مضت . فهبّ يمازح صديقه ويرحل من النكات الطفها ثم جعل ينظر الى جارته الزئارة . وكان يضحك ويقهقه في الضحك على

عادة الشرقيين وكأنّنا بالقهقهة نريد أن نعلق سرورنا في شيء من الأشياء ذات الفرقعة

فكنت ان تأملت حسين انكرت الرجل الذي رأيت يمشي على الشاطىء مفتشًا ودهشت كيف انقلب هذا الانقلاب ووهمت أن له طبيعتين متباينتين . والصواب انه خدع نفسه ، فما الحر بدّ لت من حاله ولا صديقه سلاه ولا جارته ردته عن التشاؤم ولكنه نسي الفرار من سوداويته . تتضاحك وأخذ يتظاهر بالبشر حتى اغترّ من حيث لا يشعر ، فجعل يضحك حقيقةً ويهزّ للحياة . على ان حالته الأولى لم تزل باقية ولكنها دُفنت حتى حين تنقضي فيه حالته الثانية المكتسبة . ومثله مثل المرأة القبيحة ، ان تجملت غرّتك وغرّت نفسها وعزاؤها كله في هذه اللذة الكاذبة ، ومتى استردت وجهها عاد اقبح من قبل

***

ما زال حسين بين تكأته وكأسه ونظراته الى جارته منفلاً شقاءهُ وتشاؤمه وفلسفته للسردة وطموحه الى الحب حتى اتفق لهُ في لحظةٍ من اللحظات أن يدير بوجهه الى الشاطىء ، فتمثل لهُ مرةً ثالثةً منظر المأتم المقام في جانب من الارض فأحسّ يخرج صدرٍ راجعهُ فقهقه فجأةً قهقهةً طويلة . فنظرت اليه جارتاه في دهش بل في احتقار . واما فريد رياض فتساءل ما بال حسين يضحك على هذا الشكل من دون سبب ثم حدّق الى وجههِ فلمح فيهِ بريقاً غريباً . فشكّ أسليم العقل صديقه ام فاسده

بيد أن حسين نفسه ما درى السبب الذي من أجله قهقه ، ولكنهُ شعر أنهُ لو لم يفعل قُضي عليهِ أو دُخل في عقله . فشأنهُ شأن شاعرٍ اخذه الكرب اخذاً شديداً فقال الشعر على غير وعي ، واذا آهاته فرّجت من كربه . . . ألا هذا (كُشَيِّر عزة) لولا قصائده جُنَّ ، وهذا (غوته) لولا قصته (ڤرتير) لانتحر

ادوار فارس
حامل لسانس الآداب
من جامعة السوربون بباريس